الأستاذ: النذير ضبعي
السنة: الثانية ليسانس
المادة: المدارس اللسانية
التخصص: دراسات لغوية
المحاضرة رقم: 13
عنوان المحاضرة: مدرسة أكسفورد

دأبت الساحة اللسانية على تناول الظاهرة اللغوية وفق وجهات نظر متباينة، فبعد أن كانت أسيرة النظام المغلق محكومة بنظامها الداخلي مفصولة عن وظيفتها على يد الاتجاه البنيوي جاءت التداولية لتفتح أفقا أرحب للدراسات النصية المتكاملة حيث حملت على عاتقها دراسة المنجز اللغوي في السياق. ففرضت على الدارسين واجب الإلمام بكل مكونات العملية التخاطبية التي تنبني على سياقا لغويا محكوما بنظام اللغة ذاتها، وسياقا مقاميا أعم يلفّ الحدث اللغوي، لأن الفهم الدقيق لمعاني يبنى على استحضار جميع مكونات الخطاب اللغوية والسياقية.

تهتم التداولية بدراسة اللغة أثناء الاستعمال، حيث تراعي كل ما يحيط بها كالمتكلم، والمخاطب، ومكان وزمان التخاطب، والحاضرين أثناء الخطاب، وعلاقة المتكلم بالمخاطب، والمستوى الثقافي لهما... كي تتضح مقاصد المتكلم، والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطب، لذلك عدّها "رودولف كارناب" "R. Carnap" قاعدة اللسانيات، فهي قادرة على حل الكثير من القضايا اللغوية التي عجزت عن حلها المناهج السابقة[1].

وتنهل التداولية من منابع عدة، فهي ملتقى لمصادر مختلفة يصعب حصرها، لكل مفهوم من مفاهيمها حقل معرفي انبثق منه، فالأفعال الكلامية ولدت من رحم الفلسفة التحليلية، ونظرية المحادثة انبثقت من فلسفة "بول غرايس" "P. Grice"، وأما نظرية الملاءمة فقد خرجت من علم النفس المعرفي وهكذا...[2]، لذلك كانت ملتقى للكثير من النظريات المعرفية والفلسفية، مما أدى إلى تعدد تعريفاتها حسب اهتمامات الباحث.

ولعل أول تعريف لها يعود إلى الفيلسوف "تشارلز موريس" "CH.Moris" عام 1938، فقد اعتبرها جزءا من السيميائية، حيث ميّز بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة وهي: علم التركيب الذي يُعنى بدراسة العلاقات بين الكلمات، وعلم الدلالة الذي يهتم

---

[1]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، ط1، 2004، ص23.

[2]- ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطبعة بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 17.

بالمعنى الحقيقي للملفوظات، وأخيرا التداولية التي تدرس – حسب رأيه- العلاقات بين العلامات ومستخدميها[3].

ولم تصبح التداولية علما يعتد به إلا في السبعينيات من القرن العشرين، بعد أن قام بتطويرها فلاسفة أكسفورد، حيث درسوا اللغة وربطوها بكل ما يحيط بها أثناء التلفظ، فصارت التداولية تهتم بوصف العلاقة القائمة بين المرسل والمرسل إليه أثناء التواصل، وتُعنى بالحدث اللغوي، لفهم قصد المتكلم[4]، وبذلك جمعت بين الأقطاب التواصلية الثلاثة وهي المتكلم، والمتلقي، والخطاب.

وقد اختلف الباحثون في تعريفها، فهناك من ركّز على الخطاب، وعدّها مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية، التي تُعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية[5].

وهناك من ربطها بالمرسل، فعرفها بأنها "كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجه المرسل عند إنتاج الخطاب، بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية، في ضوء عناصر السياق، بما يكفل ضمان التوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده، وتحقيق هدفه"[6]، وقد ربطها محمود أحمد نحلة بالسامع فعدّها "فرعا من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم (speaker intentions)، أو هو دراسة معنى المتكلم (speaker meaning)، فقول القائل: (أنا عطشان) مثلا قد يعني: (أحظر لي كوبا من الماء)، وليس من اللازم أن يكون إخبارا بأنه عطشان"[7].

من هذه الرؤى المتعددة تغدو التداولية في مفهومها العام دراسة للغة أثناء التواصل أو الاستعمال، فهي تجمع بين اللغة والسياق أثناء الدراسة لفهم المعنى؛ لأن هذا الأخير ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، بل لابد من تضافر أقطاب العملية التواصلية والسياق للوصول إلى المعنى الكامن في الكلام.

ثانيا- الإرهاصات الفلسفية للتداولية:

إذا حاولنا البحث عن الجذور الأولى للتداولية يمكن أن نلمسها في الفلسفة التحليلية، وهي اتجاه فلسفي ركّز على موضوع اللغة، وحاول تغيير مهمة الفلسفة وموضوعها وممارساتها، فقد حددت هذه الفلسفة لنفسها مهمة واضحة منذ تأسيسها على أساس علمي

---

[3]- ينظر، آن روبول - جاك موشلر، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس - محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1 ،2003، ص 29.

[4]- ينظر، نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراءات، ص23-24.

[5]- ينظر، فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر حباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007، ص 18.

[6]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، ط1، 2004 ، ص22.

[7]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، دط، 2002، ص12-13.

موضوعه اللغة، فثارت على الفلسفة الكلاسيكية (الميتافيزيقية والطبيعية)، لتجعل مهام الفلسفة البحث في اللغة وتوضيحها[8].

ويعدّ "فريجه" "G. Frege" مؤسس هذا الاتجاه الفلسفي، وقد تأثر به عدد من الفلاسفة منهم: "هوسرل" "E.Husserl"، "وكارناب"، و"فيتغانشتاين" " L. Wittgenstein"، و"أوستن" "J. Austin" و"سيرل" "J.Searle"، وتجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسلمة عامة مشترك مفادها: "أن فهم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبر له عن هذا الفهم، وتلك رؤية مشتركة بين جميع تيارات الفلسفة التحليلية واتّجاهاتها"[9].

ويدعو الاتجاه التحليلي إلى[10]:

1- الثورة على أسلوب البحث الفلسفي القديم، خاصة الجانب الميتافيزيقي منه.

2- الاهتمام بالتحليل اللغوي.

3-تجديد بعض المباحث اللغوية وتعميقها، خاصة مبحث الدلالة والظواهر اللغوية المتفرعة عنه.

وتنقسم الفلسفة التحليلية إلى ثلاثة أقسام رئيسة[11]:

- الوضعانية المنطقية بزعامة رودولف كارناب.
- الظاهراتية اللغوية بزعامة إيدموند هوسرل.
- فلسفة اللغة العادية بزعامة فيتغنشتاين.

أ- الوضعانية المنطقية: يتزعمها "رودولف كارناب"، الذي تتلمذ على يد "فريجه"، ويرى أصحاب هذا الاتجاه في طوره الأول أن اللغة الجديرة بالتحليل هي اللغة المثالية، لكن سرعان ما غير "كارناب" مواقفه ليهتم باللغات اليومية، حيث قام بتأسيس فلسفة ذات جذور تداولية، بعدما أحسّ أن اللغة ليست مجرد قواعد تُبنى بها الجمل، بل هي تعبير عن الواقع ودلالة عليه في الدرجة الأولى[12]، فكانت أعماله منطلقات لنشأة التداولية.

ب- الظاهراتية اللغوية: يعدّ الفيلسوف الألماني "إيدموند هوسرل" من أبرز رواد هذا الاتجاه، ويعود الفضل للظاهراتية في اكتشاف القصدية، التي تعد من أبرز الجوانب التداولية، غير أن هذه الفلسفة أغرقت في مسائل بعيدة عن الاستعمال اللغوي، بسبب نزعتها الفلسفية اللاواقعية، فقد "انغمست في البحث في أطر فكرية أعم من الكينونة اللغوية... ومن

---

[8]- ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص20.

[9]- المرجع السابق، ص21.

[10] - ينظر، أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، منشورات عكاظ، الرباط، 1989، ص26.

[11] - ينظر، كادة ليلى، المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية، ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا، رسالة دكتوراه (مخطوط)، ص22.

[12]- ينظر، محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1985، ص 128.

ثم فهي اتجاه غير تداولي، ولكن هذا الموقف النقدي ينبغي ألا ينسينا أن الفلسفة الظاهراتية قد جاءت بمبدأ إجرائي جد مفيد في اللسانيات التداولية، وهو مبدأ القصدية"[13].

ج- فلسفة اللغة العادية: رائد هذا الاتجاه هو الفيلسوف النمساوي "لودفيغ فيتغنشتاين"، وقد اهتمت هذه الفلسفة بالحديث عن طبيعة اللغة وطبيعة المعنى في اللغات العادية. وترى أن المعنى ليس ثابتا ولا محددا[14]. وتعدّ اللغة المادة الأساسية للفلسفة في نظر "فيتغنشتاين"، لذلك أعطى لها أهمية بالغة؛ لأنه يعتقد أن إهمال الفلاسفة للغة وسوء فهمهم لها أدى إلى تلك التناقضات والخلافات بينهم[15].

وتهتم هذه الفلسفة باللغة العادية بوصفها المعبرة بشكل صادق عن التصورات والمفاهيم، لذلك لم يكتف "فيتغنشتاين" بالدعوة إلى تحليلها فحسب، بل دعا إلى الحكم بها على صحة وبطلان ما يُقال من عبارات[16].

وقد عدّ فيتغنشتاين اللغة لعبة وأداة، حيث تتعدد معاني الكلمات بتعدد استخداماتها في اللغة العادية، وفي السياقات اللغوية التي ترد فيها، فاللغة عنده "ليست كالرجل الصارم، يعرف دائما ماذا يريد، ويفعل دائما طبقا لقاعدة محددة، وإنما كرجل فضفاض متفائل، له مناشط متعددة، يتلاعب بما لديه من أدوات دون صرامة أو خطة محكمة يسير وفقها"[17].

نستخلص من هذا الكلام أن اللغة مرنة بعيدة عن الجمود، لها القدرة على مواكبة هذا التنوع من الأغراض، فهي تشبه غرفة قيادة قطار، تضمّ مجموعة من المقابض التي لها القدرة على القيام بحركات مختلفة، هذه المقابض تطابق الكلمات[18]؛ لأن المقبض الواحد يمكن أن يؤدي أكثر من وظيفة، والكلمة الواحدة تستعمل للدلالة على أشياء عدة حسب سياقها، كذلك الوظيفة الواحدة قد تؤدَّى بأكثر من مقبض، فتوقيف القطار مثلا لا يؤدى بمقبض واحد، وهذا أيضا يماثل اللغة، حيث يمكن استخدام أكثر من كلمة للدلالة على شيء واحد.

محصّلة ما سبق أن هذا الاتجاه في صميم الدرس التداولي، فقد انبثقت من رحمه نظرية الأفعال الكلامية، غير أن التيارين الأول والثاني، وهما الوضعانية المنطقية، والظاهراتية اللغوية خرجا عن التداولية[19].

---

[13]- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص23.

[14]- ينظر، المرجع نفسه، ص20.

[15]- ينظر، المرجع نفسه، ص23 .

[16]- ينظر، صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993، ص34.

[17]- محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1985، ص 106- 107.

[18]- ينظر، جمال حمود، فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين، الدار العربية للعلوم والنشر منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط1، 2009، ص307.

[19]- ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص22.

وقد اكتسبت أعمال "فيتغنشتاين" مكانتها الحقيقية بعدما تبنّاها فلاسفة "مدرسة أكسفورد"، حيث تأثروا بها تأثرا كبيرا، خاصة "أوستن" الذي "بدا أثر فيتغنشتاين عليه واضحا في كتابه (**عندما يكون القول هو الفعل**)، وتلميذه "سيرل" في استلهامه لبعض أفكار هذا الفيلسوف، واتخاذها معايير وأسسا في دراسة القوى المتضمنة في القول"[20].

ومجمل القول إن الفلسفة التحليلية اهتمت باللغات الطبيعية، وباستعمالات اللغة، ومقاصد الكلام، وهو ما مهّد الأرضية لظهور أفعال الكلام على يد "أوستن"، لتظهر بعدها نظريات أخرى كالقصدية ، والملاءمة، والاستلزام التخاطبي وغيرها من النظريات التي كونت فيما بينها التداولية.

[20]- المرجع نفسه، ص 24.